أثر الجوارى فى الأدب (١)

بقلم عبد اللطيف المغربى
المدرس بمعهد التربية للبنات

٢

ترامى بنا القول فى مقالنا الذاهب ، إلى الغاية السامية التى بلغتها الجوارى بالنهضة الغنائية فى أزهى عصور الاسلام . ونريد اليوم أن نطلع على قراء هذه الصحيفة الكرام من مطلع آخر ، وضاء الأنوار ، مختلف الثمار ، بهيج الألوان ، عذب المنهل ، عبق الأريج ، رقراق الأنداء ، متجاوب الأصداء ؛ ذلك هو أثر الجوارى فى الأدب العربى .

ولم يكن بدعا أن يكون لهن حميد الأثر فى الأدب ، كما كان لهن حميده فى الغناء ؛ فالأدب والغناء غصنا دوحة فتية ، وكلاهما متمم للآخر مقوم له .

ومتى رأيت نهضة غنائية ، فالتمس أن يكون من أمتن دعائمها وأغزر مواردها وأصدق طيوفها وأقوى أرواحها (الأدب) . سنن متبع ، وعرف مألوف ، وثمرة طبعية . ومن حاول فصل الغناء عن الأدب فهو كمن يحاول أن يحول بين الزهرة وشذاها ، أو النفس ومناها . فالمغنى فى إيقاعه ونظم ألحانه ، شاعر فى أفق الأدب العالى ، حر القافية والروى ، ينظم ما أراد من شجون النفس وأهوائها وخلجاتها وأمانيها ، فى نسق من الألحان كأسلوب البيان ، بعيد التأثير ، شديد الأسر ، روحى المدخل ، سحرى المأخذ ، يفوق أسلوب الشعر المقفى الموزون روعة وانسجاماً ، ويفرعه حسناً وسحراً . ولهذا قالوا إن الموسيقى ضرب من التأثير لم تقو الطبيعة على استخراجه بالبيان ، فاستخرجته بالألحان .

(١) راجع المقال الأول فى العدد الثانى من السنة الثانية لصحيفة دار العلوم

فالموسيقى أروع من الشعر ، والمغنى فى لحنه أشجى من الشاعر فى شعره .

وحسبك بياناً لهذا أن الشعر يظل خامداً حائراً لا يجد سبيله إلى الآذان والقلوب ، حتى ترفعه الموسيقى على أجنحتها الرقيقة ، وترقصه بإيقاعها الحسن المطرب ؛ فاذا هو إلى كل أذن مقرب ، وإلى كل قلب محبب

وقد يكون المغنى شاعراً بالمعنى الاصطلاحى ، يقرض الشعر ، لما بين الفنين من نسب وارتباط ؛ ولهذا صار كثير من المغنين والقيان شعراء وشواعر ، ولا غرو أن يُحكم رجل الفن البارُّ به كلَّ الصلات التى تلائمه وتغذيه وتسمو به فى عالم الابداع والاجادة . وأحقها بالتقدمة (الشعر) قرضاً ورواية . ونحن إذا عمدنا لأثر الجوارى فى الأدب لم نكن نعنى به قرضهن الشعر فحسب كأول بادرة تعلق بالذهن من هذا العنوان ، بل نرمى إلى نواح عدة كانت النفس جياشة بالرغبة فى كل منها بمقال خاص . ولكنا آثرنا أن نضرب حولها نطاقاً من الاختصار . ونسوقها قريبة المنال سهلة الايراد ، لتكون بالفائدة أعجل ، وإلى النفس أحب .

كان من أثر الجوارى فى الأدب ، قرضهن الشعر فى أغراضه المختلفة ، من مدح ، وهجاء ، ورثاء ، وغزل ، وعتاب ، ووصف . لأن إعدادهن لتلك الحياة العربية الرائعة الفخمة ، نبه فى كثير منهن ملكة قرض الشعر ، لحسن استعدادهن الفطرى ، وكثرة ما روين من الأشعار الكثيرة فى الأغراض المختلفة .

فظهرت منهن شواعر نوابغ نذكر لك شيئاً من ثمار قرائحهن .

هذه فضل الشاعرة لما دخلت على المتوكل قال لها : أشاعرة أنت ؟ قالت : كذا زعم الذى باعنى واشترانى . فضحك . وقال : أنشدينا شيئاً من شعرك . فقالت :

استقبل الملكَ إمامُ الهدى عامَ ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى أن تملك الناس ثمانينا

لا قدس الله أمرأً لم يقل عنـــد دعائى لك : آمينا

وهو شعر فاتر لم يبلغ حد الجودة ، ويشبه فى بعض نواحيه شعر المتون . واستحسان المتوكل له لم يكن ثمرة جودة ، بل لأنه قيل فى مدحه وأراد تشجيعها .

وهذه محبوبة جارية المتوكل الأمينة الوفية ، تصدف عن زهرة الدنيا بعد قتله وتقيم على الحداد ، وفاء لسيدها وزهدا فى الدنيا بعده . وتنشد فى رثائه حين أكرهت على الغناء فى مجلس أعدائه قولها :

أى عيش يطيب لى لا أرى فيه جعفرا
كل من كان ذا هُيَا (م) مٍ وحزن فقد برا
غير محبوبه التى لو ترى الموت يشترى
لاشترته بملكها كل هذا لتقبرا
إن موت الكئيب أص (م) لح من أن يعمرا

وترى فى هذا الشعر لوناً صادقاً من العاطفة والنبل يرفعه عن سابقه بعض الشيء . ونكتفى بهذا القدر من أنواع الشعر العامة ، فان فى استيفائها حرجاً .

ومن تأثيرهن فى الأدب ، ذلك النوع الحسن من المحاورات والاجازات الشعرية ، مما تدفع إليه الحاجة الطارئة ، والضرورة الحافزة . وفى الحق أن هذا باب جليل من أبواب الأدب ، برزت فيه الجوارى وفقن فيه أحيانا كثيرا من صناديد الشعر ورجالاته .

وإنا لمسموعك شيئا من هذا القبيل يثير إعجابك وطربك .

كان محمد بن عيسى الجعفرى يهوى جارية ، فقال لصديق له : لقد شغلتنى هذه عن صنعتى وكل أمرى ، وقد وجدت مسّ السلوان على كبدى ، فاذهب بنا حتى أكاشفها بذلك فأستريح . فلما جاءاها قال لها محمد بن عيسى : أتغنين ؟

وكنت أحبكمْ فسلوت عنكمْ عليكمْ فى دياركمُ السلامُ

فقالت : لا ، ولكنى أغنى :

تحمل أهلها عنها فبانوا على آثار من ذهب العقاب

فاستحيا وأطرق ساعة ثم قال : أتغنين ؟

وأخضع بالعتبى إذا كنتُ مذنبا وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتصلُ

قالت : نعم ، وأغنى أحسن منه :

فإن تُقبلوا بالود نُقبلْ بمثله ونُنزلكم منا بأقرب منزل

فتقاطعا فى بيتين ، وتواصلا فى بيتين . وهى محاورة بديعة إلى أبعد غاية ، تريك حسن التمثل بالشعر ووضعه فى مناسباته الطريفة ، على حين أنها وليدة الفجاءة والبديهة ، وتشير من ناحية أخرى إلى ما كان عليه هؤلاء الجوارى من مقدرة فائقة . وبعد هذه تتلو عليك صورة من صور الإجازات الشعرية وهى كثيرة .

قال بكر بن حماد الباهلىّ : لما انتهى إلىّ خبر « عنان » جارية الناطفىّ ، وأنها ذكرت لهرون الرشيد ، وأنها أشعر الناس ؛ خرجت معترضا لها . فما راعنى إلا الناطفىّ مولاها . فقال لى : هل لك فيما سنح من طعام وشراب ، ومجالسة عنان ؟ فقلت ما بعد عنان مطلب . ومضينا حتى أتينا منزله . ثم دخل فقال : هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم . فقالت لا ، والله إنى لكسلانة . فحمل عليها بالسوط وقال لى ادخل . ودمعها يتحدر كالجمان . فقلت أجيزى

هذى عنان أسبلت دمعها كالدُّرّ إذ ينسل من خيطه

فقالت :

فليت من يضربها ظالما تجفُّ كفاه على سوطه

ثم أنشدتها :

فمازال يشكو الحبّ حتى حسبته تنفس فى أحشائه فتكلما

فقالت :

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه إذا ما بكى دمعا بكيتُ له دما

فقلت لها : فما عندك فى إجازة هذا البيت ؟

بديعُ حُسْنٍ بديعُ صدٍّ جعلتُ خدّى له مَلاذا

فأطرقت ساعة ثم قالت :

فعاتبوهُ فعنفوهُ فأوعدوه فكان ماذا ؟

وأنت إذا قدّرت الزمن الذى قيلت فيه هذه الإجازة ، أصبحت فى غنى عن التعليق عليها والاعجاب بقدرة (عنان) والثناء عليها فى موقف كهذا قد يعجز أنبغ الشعراء .

ومن تأثير الجوارى فى الأدب أيضا أنهن أصبحن منبعا خصبا للروايات الموضوعة التى تموج بها كتب الأدب ، وتشعرك لأول وهلة بكذبها وانتحالها ؛ ونسوق إليك صورة من هذه الروايات توضح ما نقول :

قالوا إن الهادى كان له جارية تسمى « غادر » وقعت من نفسه موقعا حسنا وكان يخشى أن تصير إلى أخيه هرون من بعده . فأخذ عليها أغلظ الأيمان ألا تكون له ، فلما مات الهادى صارت إلى هرون ، ونالت عنده مكانة حسنة . وفى بعض الليالى رأت وهى نائمة الهادى . فقامت مذعورة وجلة ؛ فقال لها هرون : ما بالك ؟ قالت رأيت الهادى الآن ينشدنى :

أخلفتِ عهدى بعدما جاورتُ سكان المقابر
وصحبتِ غادرةً أخى صدق الذى سماكِ غادر
لا يهنكِ الإلفُ الجديـ ـدولا تَدر عنكِ الدوائر
ولحقتنى قبل الصبا ح وصرتِ حيث غدوت صائر

ثم ولّى عنى . فقال لها هرون : هذه أحلام الشيطان . قالت : كلا والله يا أمير المؤمنين . ثم اضطربت بين يديه وماتت لساعتها ! ونحن بلا ريب نحكم بزيف هذه الرواية وانتحالها ؛ إذ ليس من المعقول أن يورد الميت عتابه فى صورة شعرية وهو فى عالم آخر بعيد عن الزخرف والصناعة ، وأن يحفظ الحىّ النائم هذا الشعر وهو أكثر مما ذكرت ، ويؤديه على هذه الصورة لا يخرم منه حرفا ؛ على حين أننا نرى فى المنام صورة معنوية ، وإذا استيقظنا لا يمكننا فى كثير من الأحايين ربط أجزائها ولا الالمام بكنهها . وقد أرادوا بعد ذلك أن يتموا القصة ويربطوا نتيجتها بما تضمنه الشعر ؛ فذكروا أنها اضطربت وقضت لساعتها بين

يدى هرون ! والوضع فى الرواية حول الجوارى أفاد الأدب بلا مراء ثروة ضخمة .

ولكن أغيظ ما يؤلمنا من هذه الروايات ، تلك الصور الملحة فى الإسفاف والتى طوقوا بها سير كثير من خلفاء الاسلام ، فصوروهم فى مواقف يغضب لها الأبى العيوف إذا نسبت إلى رجل من أوساط الناس ؛ فكيف بها إذا نسبت إلى خلفاء الاسلام ؟ وإن من يقرأ ما يرويه كتاب الأغانى من هذه الروايات الذميمة المنسوبة إلى هرون الرشيد ، ذلك الامام الذى كان أحفظ الناس لتراث آبائه وأجداده ، من الشمم والأباء وبعد الهمة والترفع عن الدنايا ليدهش ؛ فجزى الله أمثال هؤلاء الوضاعين بما صنعوا ما يستحقون من جزاء

ومن تأثيرهن فى الأدب أيضا إثارة ميول الشعراء نحوهن ، حتى أقبلوا عليهن باشعارهم المختلفة ، من غزل وعتاب واستعطاف وغيرها . ومن الشعراء الذين لهم صيت ذائع فى هذا الباب ، الأحوص فى العصر الاسلامى ، وأبو العتاهية ، وأبو نواس ، والعباس بن الأحنف فى العصر العباسى ، وغير هؤلاء كثير يضيق المقام عن سرد أسمائهم . ولا ريب أن هؤلاء الشعراء أهدوا إلى الأدب العربى بتأثير عاطفة الميل إلى الجوارى كثيرا من الثمار الأدبية التى يزهى بها الأدب ويفخر ؛ وتجد صورا صادقة لمواقف هؤلاء الشعراء فى كتاب الأغانى وبعض كتب الأدب ، فلا داعى إلى إيراد شىء منها

ومن ألوان تأثيرهن فى الأدب نشر الفكاهة والمجون فى الجو العربى ، وأخذهن بطرق خاصة فى الملابس والعادات ، وكتابتهن على الأقمصة والأكمام والقلانس والعصائب ومشاد الطرر والذوائب والمناديل - ما يؤثر من الأشعار العذبة الرقيقة المثيرة للاحساس والشعور .

ونذكر لك شيئا من عفيف ما كان يكتب :

كتبت جارية على رداء لها

أراهم يأمرون بقطع وصلى ... مُريهم فى أحبتهم بذاكِ
فأن هم طاوعوك فطاوعيهم ... وإن عاصوك فاعصى من عصاك

وكتبت نشوان جارية زلزل على عصابتها

عين مسهدة فى مائها غرقت ياليتها ذهبت لولم تكن خلقت
لم تذهب النفس إلا عند لحظتها ولا بكت بدم إلا لما أرقت

وكتبت جارية على منديل

أنا مبعوث إليك أنسُ مولاتى لديك
صَنَعَتْنى بيديها فامسحى بى شفتيك

إلى آخر ذلك مما يطول بنا استقراؤه ، ويثير الشعور والوجدان ، وينمى الذوق ، ويصور كثيرا من الملح والفكاهات المستعذبة .

وبعد أن أوردنا ما سبق نرجو أن نكون قد وفقنا إلى جمع شتات هذا الموضوع ، وقدمناه باقة حسناء منتظمة الأزاهير إلى قراء هذه الصحيفة الكرام بعد طول الجهد والعناء فى ضم الأشباه إلى الأشباه ، والنظائر إلى النظائر ؛ فجاء هذا البحث ذا وحدة مؤتلفة الأجزاء ؛ وقد كانت عناصره من قبل منثورة فى كتب الأدب على غير نظام ، ولعلنا بذلك أيضا نكون قد رفعنا ستار النسيان عن جهة مهملة من جهات الأدب القوى الخصب ، لم تعتورها أقلام الكتاب باستيفاء واستقصاء ؛ فأخرجناها للناس باسمة وضاءة ؟

عبد اللطيف المغربى